مصادر العربية الفصيحة
ومصادر التوثيق والاحتجاج

اللغة الفصيحة أعلى درجات اللغة مطلقًا ، وأفصحها لفظا وأقواها معنى ، وأدقها تركيبا ، وأوجزها لفظًا وأغزرها معنى ، وأبينها، وأبلغها ، وهي التي ترتفع عن شواذ اللهجات ، وتجتمع لها خصائص عامة تعرف بها.

ويمثلها النص القرآني ، الذي يعد أفصح نص عربي على الإطلاق وأبينه وأصحه ، فلم يشبه شائبة النقد مطلقا . يليه الحديث النبوي الشريف ، الذي قاله أفصح العرب على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ يليه كلام فصحاء العرب شعرًا ونثرًا الذي تجتمع فيه خصائص العربية ولا يخالف عرفها العام .

ومصادر اللغة منابعها ومادتها الصحيحة التي يعتمد عليها في إقامة لغة صحيحة توافق عرف العربية الفصحى . وهي على ترتيبها التاريخي: الشعر الجاهلي ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وشعر الإسلاميين ونثرهم الذي يوافق العربية الصحيحة ولا يخرج على عرفها ، وقد كان ذلك مصدرًا في الأمصار حتى نهاية القرن الثاني ، وفي بادية العرب حتى نهاية القرن الرابع ، أما القرآن الكريم والحديث الشريف فهما مصدرها الدائم الذي لا ينقطع معينه .

والاحتجاج في اللغة هو إقامة الحجة أو الدليل على صحة اللفظ والنص ، والقاعدة في العربية الفصيحة ، ويقيم الحجة على ذلك ما يصح من لفظ ونص صح الدليل عليه في اللغة العربية الفصحى التي يحتج بها ، ومصادر التوثيق اللغوي في العربية مرتبة حسب صحة روايتها ودرجتها في الأخذ والاستشهاد على النحو الآتي:

القرآن الكريم ، الحديث الشريف ، كلام العرب شعرًا ونثرًا ، وهذه المصادر يقتبس منها ويقاس عليها ، وتعد معيارًا للعربية الفصيحة الأصيلة .

أولا: القرآن الكريم

القرآن الكريم: كلام الله المنزل بالوحي على رسوله محمد ﷺ بلسان عربي مبين غير ذي

عوج ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزل من عزيز حكيم ، وهو النص المتعبد بتلاوته والمكتوب في المصاحف ، وقد تكفل الله تعالى بحفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9] . وقد حفظ الله تعالى كتابه في صدور عباده المؤمنين الذين حملوه في صدورهم محفوظًا ، كما حفظوه مكتوبا رسمًا وضبطًا ، وبينوا أحكامه ومعانيه ، وقواعده ، وقد قامت علوم العربية في بدء أمرها في كنف القرآن الكريم . ومقصدها الأول النص القرآني ، ثم عرجت على كلام العرب شعرًا ونثرًا للاستعانة به في فهم النص القرآني.

وذهب الباحثون في العربية قديما وحديثا من العرب وغيرهم من المستشرقين أن النص القرآني من أقوى النصوص اللغوية وأدقها نقلاً ورواية دون غيره من مصادر اللغة فهو فوق الحديث والشعر والنثر ؛ لأن الحديث الشريف دُوّن في نهاية القرن الأول والثاني وانتهى من تدوينه في الثالث ، بعد أن تناقله الرواة فترة من الزمن ، ولكن القرآن الكريم دوّن في فترة مبكرة، فلم يصبه من اختلاف الرواية ما أصاب الحديث والشعر ، فقصائد الجاهليين لم تدوّن إلا في نهاية القرن الأول الهجري تقريبا ، وقد ثبت أن بعض صحف القرآن الكريم قد دونت في عصر النبوة ، ودوّن القرآن الكريم كاملاً في صحف في عهد خلافة الصديق رضي الله عنه ، وأعيد تدوينها وجمعها في كتاب واحد يعرف بالمصحف في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه ، وهي النسخة التي استقرت في أيدي المسلمين حتى الآن ، وعرفت بالمصحف العثماني .

ويعد النص القرآني بهذا رأس مصادر اللغة وأقوى شاهد في الاحتجاج والتوثيق ، وأولى نصوص العربية جميعا تقديما في كل ما يتعلق بالبحث اللغوي .

ويعد النص القرآني أقدم نص عربي مدون . لم يرق إلى نصه الشك ، وهو أول ما دون من نصوص العربية الفصيحة المتداولة وأكثرها رواية .

ويمثل النص القرآني اللغة العربية الفصيحة أصدق تمثيل ، ولم يختلف في ذلك باحث أو عالم باللغة عربا ومستشرقين ، ويعد النص القرآني معيارا للعربية الفصيحة التي يقيس عليها أهل كل زمان لغتهم .

وقد اعتبر علماء العربية القرآن الكريم أساسًا أول للقياس ؛ لأنه أفصح نصوص العربية مطلقا وأبلغها وأقواها وأصحها نقلا ورواية بيد أن قومًا من النحويين القدماء حانبهم الصواب عندما قاسوا النص القرآني على ما لديهم من شواهد لغوية مأثورة عن العرب الجاهليين وبعض الإسلاميين شعرًا ونثرًا ، فوضعوا قواعد النحو على ما وافق النصوص العربية ، وأقاموا على كلام العرب قواعدهم ، وأخذوا من القرآن ما وافق آراءهم ، وأولوا ما جاء في النص القرآني مخالفًا قواعدهم وشواهدهم، وكان أولى لهم أن يقيسوا لغتهم على النص القرآني وأن يضعوا قواعدهم عليه غير مخالفة لوجوه القراءات ، وأن يأوّلوا كلام العرب أو يردوه إن خالف النص القرآني . فالنص القرآني أولى بالترجيح من كلام العرب ؛ لأنه الأفصح والأقوى حجة والأصح رواية ، وهو قبل كل هذا بلفظ رب العالمين دون غيره ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد تكفل بحفظه إلى يوم الدين .

وقد وجه الفخر الرازي نقدًا لهؤلاء النحاة الذين احتجوا على النص القرآني بكلام العرب ، وجعلوه شاهدا عليه في إحكام قواعدهم وصحتها ، فقال: «كثيرًا ما نرى النحويين متحيرين في تقدير الألفاظ الواردة في القرآن ، فإذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد التعجب منهم ، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحته . فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحته كان أولى» .

وانتقدهم الإمام ابن حزم أيضًا في كتابه «الفصل بين الملل والأهواء والنحل» : «ولا عجب أعجب ممن إن وجد لامرئ القيس ، أو لزهير ، أو لجرير ، أو الحطيئة ، أو الطرماح ، أو لأعرابي أسدى، أو سلمي ، أو تميمي ، أو من سائر أبناء العرب لفظًا في شعر أو نثر جعله في اللغة وقطع به ، ولم يعترض فيه ، ثم إذا وجد لله تعالى خالق اللغات وأهلها ، كلامًا لم يلتفت إليه ولا جعله حجة ، وجعل يصرفه عن وجهه ، ويحرفه عن موضعه ، ويتحيل في إحالته عما أوقفه الله عليه»[1].

---

(1) ارجع في ذلك إلى: دراسات لغوية الدكتور عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب ص73 ، 74 ، 75 .

وقد كانت لغة القرآن الكريم معروفة لجميع العرب حجازين وغير حجازين ، فلم يرد ما يشير أن بعض قبائل العرب الجنوبيين من اليمن أو الشماليين من أطراف العراق ، والشام لم يفهموا النص القرآني ، فكانت الوفود ترد على النبي ﷺ وكان يقرأ عليهم القرآن ، ولم يرو شيئًا في إعجامه عليهم ، وقد أكد النص القرآني أنه بلسان عربي مبين أي واضح لا لبس فيه ولا إبهام .

ومن الحقائق المسلم بها أن القرآن الكريم هو أفصح من نطق بالعربية ، وكانت فصاحته على نهج معجز لكل فصحاء العرب ، في عصر تألقت فيه ملكة البيان على أكمل صورها ، لدى قوم لم يعرفوا من صنائع الدنيا سوى صنع البيان ، ولم يبرعوا في فنون الحياة ، براعتهم في قول الشعر والنثر[1] .

فقد أحكم الله عز وجل آياته كتابه الكريم إحكامًا لم يبلغه كتاب منزل ولا موضوع ، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1] فهو من عند الله الحكيم في أقواله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النساء: 82] . أي لوجد هؤلاء العرب فيه فسادًا واضطرابًا.

وهذا الخطاب موجه إلى أهل العربية أصحاب الحس اللغوي والبلاغي . فلو كان هذا القرآن من عند غير الله أي كان مفتعلا مختلفا ، لوجدوا فيه تناقضًا واضطرابًا وضعفًا كثيرًا[2] .

وكان من دواعي قوة الحس اللغوي لدى العربي أنه كان إنسانا فطريا في بيئة نقية من شوائب الحضارات والخرافات والأساطير ، فلم تفسد ذوقه صراعات المادة ، وفلسفات الأمم الخرى ، فكان همه الشاغل لغته التي يتحدثها والتي لا يملك غيرها من المعارف الإنسانية ، فعكف عليها يتفحصها ، وينتقي منها أعذب الألفاظ التي تتمتع بجزالة لفظها وغزارة معناها ، وصقل منها جملاً ، وأقام منها شعراً موزونًا ، وخطابا قويا موجزا في لفظه

---

(1) دراسات لغوية ، الدكتور عبد الصبور شاهين 73 .

(2) ابن كثير 1/ 530 .

بليغًا في معناه .

وقد ضمنت له العزلة التي يحياها نقاء لغته وصفائها من الدخيل ، فجاء القرآن بلسان أقوى مما صقلوه وهذبوه ، فلم يستطيعوا أن يباروه بأشعارهم ولا بخطبهم ، ولم يجدوا مصرفا عنه إلا اللغو فيه والتلهي عنه أو عدم سماعه لقوة تأثيره وسحره فيهم ، فهم أهل ذوق عال .

وقد رأى كثير من المفسرين واللغويين أن القرآن الكريم بلسان قريش ، وأن لسان قريش أفصح الألسنة ؛ لأنه ارتفع عن مظاهر الشذوذ في لهجات قبائل العرب غير المشهورة التي لا يقاس عليها ، وقد بينا لك في حديثنا عن اللهجات العربية ولا حاجة لنا في إعادته .

وهنالك سؤال يطرح نفسه: ألم يرد في النص القرآني شي من لهجات العرب؟ وهل القرشية في لغة القرآن تعني لهجة قريش الخاصة بهم؟

والجواب عن ذلك يتلخص في أن لسان قريش لم يكن لهجة محلية كلهجة تميم أو هذيل ، يتمتع بمظاهر خاصة ، بل كان لغة عامة جمعت سمات المشهور من لهجات العرب ، فقد ارتفعت لغة قريش عن مستوى اللهجة أو مفهومها الضيق ، ووصلت إلى العالمية في نطاق المجتمع العربي فتداولوها وتواصلوا بها على المستوى الرسمي العام بين القبائل ، فقد كانت لغة قريش بمنزلة اللغة الرسمية لقبائل العرب ، وارتفعت عن مستوى اللهجة المحلية ، وقد أهَّلها إلى هذا المستوى أن قريشا كانت إمام العرب في الجاهلية ، فالعرب تبع لها ، وقد كانت مركزًا أدبيًا وروحيا لهم يقصدونه من كل فج عميق .

وقد حظى القرشيون بمنزلة عظيمة بين العرب ، يمكن أن نتحسسها من موقفهم المعاند للدعوة الإسلامية خشية أن يؤثر ذلك فيما كانوا يتمتعون به في العرب من مزايا خاصة ومكاسب سياسية واقتصادية ، فشعروا أن الإسلام سيغير كثيرًا مما هم فيه ، فتصدوا له ، وظنوا أنه سيذهب بمهابتهم في العرب ، وقد زادهم الله عز وجل به عزا .

وقد أكد علماؤنا قديما أن لسان قريش لم يكن لهجة محلية بالمفهوم الضيق ، قال الفراء: «كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات

العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ»[1]، وذكر بعضا من مظاهر الشذوذ في لهجات القبائل الأخرى ، وقد ارتفعت لهجة قريش عنها ولم يقع فيها شيء منها . وقد كانت قريش مع فصاحتها وحسن بيانها ورقة لسانها تتخير من كلام غيرها أحسن الألفاظ وأدق المعاني ، فاجتمع لهم صفوة لسان العرب ، والمشهور منه ، فصاروا بذلك أفصح العرب[2].

وقد جاء في أكثر من نص أن القرآن الكريم نزل بلسان قريش ، وأشهر ما روي في ذلك أن عثمان رضي الله عنه قال لزيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، بعد أن أمرهم بنسخ المصاحف: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فإن القرآن أنزل بلسانهم»[3].

وروي عن ابن مسعود: أنه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . ونسب إلى عمر رضي الله عنه أنه قال: «لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف» ، وقد كان ذلك في الصحف التي كتبت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وروي أيضًا أن عثمان رضي الله عنه قال: «اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف» . وذلك في مصحفه الذي نسخ في خلافته .

وقد ورد أن عثمان رضي الله عنه أمر أربعة من الصحابة أن يكتبوا المصاحف التي نسخت في عهد أبي بكر ، وما في أيدي الناس في مصحف واحد ، وأراد بهذا العمل أن يجمع الناس على القراءة به وترك ما سواه من المصاحف التي كتبها أصحابها بطريقتهم الخاصة في الكتابة ، متأثرين بلهجات قبائلهم .

---

(1) المزهر 1/ 221 .

(2) ارجع إلى: المصدر السابق 1/ 210 .

(3) رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه في فضائل القرآن ، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب.

وروي أن الذين أسندت إليه مهمة النسخ أربعة ، وهم على أرجح الروايات زيد بن ثابت الأنصاري ، أحد كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، القرشي الأسدي ، أحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علما وعملا ، وأصلا وفضلا ، وسعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي ، وكان كريما جوادا ممدحا ، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي .

فجميعهم من قريش سوى زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وقاموا بالنسخ ، وإذا اختلفوا في موضع الكتابة على لغة رجعوا إلى عثمان رضي الله عنه ، فاختلفوا في «التابوت» أيكتبونه بالتاء أو الهاء؟ فقال: زيد بن ثابت: «إنما هو «التابوه» ، وقال الثلاثة القرشيون «إنما هو التابوت» ، فتراجعوا إلى عثمان . فقال: «اكتبوه بلغة قريش ، فإن القرآن نزل بلغتهم»[1] .

وقد فصل العلماء معنى قول عثمان رضي الله عنه: «فإنه نزل بلسان قريش» على النحو التالي: قال القاضي أبو بكر بن الباقلاني: معنى قول عثمان: «فإنه نزل بلسان قريش» ، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش ، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ۝٣﴾ [الزخرف: 3] ولم يقل قرشيا ، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها . كما أنه ليس له أن يقول: «أراد لغة عدنان دون قحطان ، أو ربيعة دون مضر ، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحدًا»[2] .

وقال ابن عبد البر: قول من قال: «إن القرآن نزل بلغة قريش» ، معناه عندي: في الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير قريش موجودة في صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ، ونحوها وقريش لا تهمز»[3] أي لا تنطق الهمزة وسط الكلمة أو آخرها دون أولها ، بل

---

(1) ارجع إلى كتاب فضائل القرآن لابن كثير الملحق بتفسيره جزء 4/ 588 المكتبة التوفيقية .

(2) تفسير القرطبي ج 1/ 61 ا المقدمة . وفتح الباري 8/ 62 .

(3) تفسير القرطبي 1/ 61 . والهمز منسوب لقبيلة تميم ، تخفيف الهمزة لغة أهل الحجاز ، ومنهم قريش.

تقلبها واوًا أو ألفا أو ياء تسهيلا مثل: ذيب ، فار ، جونة ، في ذئب ، فأر ، جؤنة .

ومن المحتمل أن يكون معنى «لسان قريش» عموم لسان العرب والمشهور منه ، وهو ما تكلمت به قريش كما بينا من قبل . وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن «القرآن نزل بلسان قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش لا بلغة هذيل»[1] .

وقد كان عبد الله بن مسعود من هذيل ، والمراد أن لا يقرئهم على لهجة هذيل الخاصة غير المشهور في العرب ، بل يقرئهم على عموم لسان العرب والمشهور منه ، وهو لسان قريش الذي ارتفع عن شواذ اللهجات .

ولهجة هذيل ليست مستبعدة من القراءة ، ولكن المستبعد منها شواذها غير المشهورة مثل: الفحفحة ، وهي قلب الحاء عينًا في مثل حتى: عتى .

وقد جاء في رواية أخرى أن عمر رضي الله قال: «إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلسان مضر ، ومضر هو ابن نزار بن معد بن عدنان ، وإليه ينتهي أنساب قريش وقيس وهذيل وغيرهم[2] .

ومعنى القرشية في القرآن ، أنه نزل بعموم لفظ قريش دون غيرها ، وقد كانت هنالك لهجة مشتركة بينها وبين جيرانها خزاعة ، وكنانة ، وتغليب لغة قريش أولى من لهجة غيرها ، ولهذا قال عثمان رضي الله عنه لكتاب المصحف: «ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فإنه نزل بلغتهم» ، وقد روي أنهم اختلفوا في لفظ «التابوت» ، وهو بلغة الأنصار التابوه ، فأمرهم عثمان رضي الله عنه أن يكتبوه «التابوت» على لغة قريش ، ولم يكتبه على لغة زيد بن ثابت وقومه من الأنصار ، وغلب لسان قريش ؛ لأنه أعم في العرب من لسان الأنصار ، ونزل القرآن بلسانهم في مكة أول ما نزل .

وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «نزل القرآن بلغة الكعبيين ، كعب قريش ، وكعب خزاعة ، قيل وكيف ذلك؟» قال: «لأن الدار واحدة» ، قال أبو عبيد: يعني

---

(1) فتح الباري ، طبعة الريان جـ8/ 624 .

(2) نفسه .

أن خزاعة جيران قريش ، فأخذوا بلغتهم»[1].

وأشهر دليل على أن القرآن الكريم نزل بلغات العرب المشهورة دون ظواهرها الشاذة الحديث الذي صح عن النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» قيل على المشهور من لغات العرب المشهورة ، وجميع وجوه المعنى الذي فسر في ضوئها هذا الحديث تفيد وجوه القراءات ، وقد جاءت وجوه القراءات على لهجات قبائل العرب المشهورة ، ودليل ذلك أيضًا أن معاني الألفاظ فسرت في ضوء لهجات العرب . ومثال ذلك لفظ «فطر» وهو بمعنى شق. ومعناه عند قريش: «ابتدأ وخلق الشيء وملهِ وابتدأه ، وقد جاء بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: 11] وقد أعلن عبد الله بن عباس ، وهو قرشي ، أنه لم يدر معناها في الآية حتى اختلف إليه أعرابيان في بئر ، فقال أحدهما: أنا فطرتها يريد أوجدتها وابتدأتها ، قال: ففهمت حينئذ موضوع قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وقال أيضًا: «ما كنت أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89] حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها:تعالى أفاتحك ، أي أحاكمك . ومثل ذلك وقع لعمر رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ [النحل: 47] ، لم يدر ما معناها حتى أخبره رجل من هذيل أنها تعني على تنقص لهم ، وأتى له بشاهد[2].

وجاء في كتاب «غريب القرآن» المنسوب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه كثر من الألفاظ التي فسرها في ضوء لغات العرب وبعض اللغات السامية[3] ، ومثال ذلك: (السفهاء) : السفيه الجاهل بلغة كنانة ، و(الصاعقة): الموت بلغة غسان (رجزا): العذاب بلغة هذيل ، و(الطور): الجبل: وافقت لغة السريانية ، (ربانيين) علماء . وافقت لغة

---

(1) تفسير القرطبي 1/ 61 .

(2) تفسير ابن عطية 1/ 44 وتفسير القرطبي 1/ 61 ، 62 .

(3) ارجع إلى: غريب القرآن المنسوب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، حققه أحمد بولوط ، مكتبة الزهراء ط1/ 1413هـ 1993م . وهي روايات جمعت عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ،في زمن التدوين ، وكثير منها متفرق في كتب التفسير والحديث واللغة .

السريانية ، (فصرهن إليك): يعني فقطعهن ، وافقت لغة النبطية ، (حوبا): يعني ذنبًا كبيرا بلغة طيء وغطفان ، والحبشة ، (هيت): هلم لك بالحوارنية ، وقيل بالسريانية ، وقيل بالقبطية ، وقيل هي حوارنية وقعت لأهل الحجاز معناها تعال[1].

وأرى أن الكلمات التي فسرت في ضوء اللغات السامية ، لا يعني هذا أن بالقرآن الكريم لفظ غير عربي ، فهذه الكلمات قد تكون من بقايا اللغة الأم التي عاشت في العربية ، ووقع مثلها في أخواتها الساميات ، كالسريانية والحبشية والعبرية ، وقد تكون قد دخلت العربية وتعربت في فترة سابقة على نزول القرآن ، وهي في حكم الكلمات العربية والله أعلم[2].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد هو سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها يمنها ونزارها ، لأن رسول الله ﷺ لم يجهل شيئا منها ، وكان قد أوتى جوامع الكلم ، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن. فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوزان ، وبعضه بلغة اليمن[3].

وقيل إن القرآن نزل أولا بلسان قريش ، ثم رخص فيه أن يقرأ بلسان العرب جميعا ما استقام المعنى ، ومما يقوي هذا أن اختلاف القراءات كان في المدينة ، ولم يقع اختلاف في مكة ، وقد كان النبي ﷺ يقرئ أصحابه القرآن ، وقد روي أن عمر رضي الله عنه أنكر قراءة هشام بن حكيم ، فذهب به إلى النبي ﷺ ، فسمعها ، فقال: «هكذا أقرأني جبريل» ، وقد سمعها عمر من النبي ﷺ غير القراءة التي سمعها من هشام ، وقد أقرها النبي ﷺ ، وقال «هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»[4].

ويرى بعض العلماء – وهو ما نميل إليه – أن المراد بالأحرف السبعة أوجه مختلفة من القراءات التي أجازها النبي ﷺ تيسرا وسعة على المسلمين على اختلاف ألسنتهم ، وليس

---

(1) ارجع إلى تفسر الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت م 7/ 177 .

(2) ارجع إلى الدلالة اللفظية ، للدكتور محمود عكاشة ، مكتبة الأنجلو ، ط2002م ، ص 89 وما بعدها.

(3) تفسير القرطبي 1/ 60 ، 61 . والبرهان في علوم القرآن للزركشي 1/ 83 .

(4) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف .

obeikandi.com

المراد حقيقة العدد سبعة ، ولكن المراد السعة على القارئ ، فالمراد التوسع في أوجه القراءة ، فالقراءات التي أجمع عليها علماء الأمة ، وشهدوا بصحتها وتواترتها عشر قراءات ، وليست سبعة وبعضهم زاد في العشر واحدة ، وبعضهم زاد اثنتين .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه قد وسع لي أن أقرئ كل قوم بلغتهم» ، وهذا يعني الأخذ بلهجات القبائل المشهورة التي كان يعلمها النبي ﷺ ، روي عن أبي العاليه الرياحي أن قوما قرءوا على الرسول ﷺ ، فاختلفوا في اللهجة فرضي قراءتهم جميعا ، فكان بنو تميم أعرب القوم .

وقد سئل الإمام علي رضي الله عنه ، عن صحة ما روي من قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف» فقال: «صدقوا ، أنزل القرآن على سبعة أحرف ، وأكثر من ذلك على كلام العرب ، بكل شيء كان المعنى فيه واحدًا في العربية ، فإذا تكلمت به كان صوابا ، فقد نزل على سبعة أحرف ، وعلى أكثر من ذلك ، وعلى أكثر من بضعة وعشرين حرفًا ، إذا كان ذلك جائزا في كلام العرب»[1] .

واختلاف القراءات فيه يسر وسعة على القارئ الذي قد لا يستطيع القراءة بلسان يخالف لسانه والأصوات التي درب عليها ، فقد لا يطيعه لسانه في نطق كلمة على نحو يخالف ما يتكلم به ، ولا يستطيع التحول عن لسانه ، ومثال ذلك تخفيف الهمزة أو تسهيلها على لهجة أهل الحجاز ، قد لا يستطيع بعض المسلمين من غير العرب نطقها وسط الكلمة أو آخرها ، فينطقونها على لهجة أهل الحجاز مثل: بير ، ذيب ، إن تعسر عليهم بئر ، ذئب .

ويدل اختلاف القراءات من وجه آخر على إعجاز النص القرآني وفصاحته ، وأنه من عند الله ، فكلام العرب يحتمل وجهاً واحدًا في الأداء ، وإلا تغير معناه ، وكلام الله تعالى ينطق بلحون العرب ، أي لهجاتهم ، ولا يفسد ، ولا يتناقض ولا يضطرب ، وقد يحتمل النص الواحد وجوها من المعنى والنص ثابت ، وقد يكون لكل قراءة وجه من المعني ، والنص يحتملها جميعا ، ويكفي أن نعلم أن وجوه القراءة تعد مادة ثمينة لعلماء النحو

---

(1) ذكره صاحب كتاب مقدمة المباني ص215 وارجع إلى فتح الباري جـ 8/ 664 وما بعدها .

يخرّجونها على وجوه مختلفة من الإعراب ، وكذا يصنع علماء البلاغة .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يجيزون القراءات التي أجازها النبي ﷺ أو صحت عنه ، وظل هذا قائما في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقد كتب القرآن الكريم في صحف في خلافة الصديق ، ولم يلزمهم بقراءة واحدة ، لأن الجيل الأول من القراء كان من الصحابة رضوان الله عليهم ذوى التقى ، والورع ، والفقه ، وقد وقع الاختلاف في القراءات في الطبقة الثانية التي تلقت القراءة عن الصحابة رضوان الله عليهم ، واعتقد أصحاب كل قراءة أنهم على الحق ، وتعصبوا لها وظنوا أن ما خالفها دون الصواب ، وقد تفرق هؤلاء في الأمصار ، وقد تدارك عثمان رضي الله عنه هذا الخطر الداهم وبحث عن علاج يقطع عليه الطريق قبل أن يزداد اتساعا ، ويستشري في جسم الأمة ، فاهتدى إلى نسخ المصحف الإمام ليجمع عليه الناس ، ويكون مرجعا لهم في الخلاف . وهذا لا يعني أنه أبطل القراءات التي تواترت عن النبي ﷺ أو أجازها لبعض أصحابه ، بل قطع الطريق على الزيادة فيها والخروج عليها ، لأن القراءات المشهورة يحتملها الرسم العثماني ولا تخالفه ، ولم يرد أنه أبطل قراءة مشهورة بل ورد أنه طلب من أصحابه الذين لهم مصاحف كتبوها أن لا تخالف ما أجمع عليه المسلمون ، ولهذا جمع المصاحف التي تخالف المصحف الإمام في الرسم وكذلك الصحف التي بها شيء من القرآن وحرقها حتى لا تكون هنالك نسخ أخرى مخالفة لما أجمع عليه الصحابة بالمدينة ، وقد أجمع علماء الأمة أن هذا الصنع يعد من بدائع أعمال الصحابة وأفضلها على الإطلاق ؛ لأنه قطع طريق الخلاف والشقاق ، وقطع ألسنة الفتنة .

وقد زعم بعض المفترين على الإسلام أن تحريق المصاحف هو الذي قضى على النسخ المتناقضة والمتخالفة ، من القرآن الكريم ، ولولا فعل عثمان هذا لوجدت نصوص كثيرة للقرآن الكريم تضاهي نصوص الأناجيل تقريبا ، وهذا باطل ، لأنه لم يكن هناك مخالفة في النص بل في الرسم ، فلم يكن مستوى الكتابة العربية وصل إلى نضجه الكامل فلم يكتمل نظام الكتابة العربية إلا في الإسلام، فقد كان المصحف رسمًا لا نقط فيه؛ لأن العرب كانوا في مهد تعلمهم الكتابة ، فلم تنتشر فيهم إلا بفضل الإسلام ، فهم أمة أمية لا تشيع الكتابة فيهم ، وكان للكتابة وجوها من الرسم مختلفة ، وأراد عثمان رضي الله عنه وكبار الصحابة

رضوان الله عليهم أن يجمعوا المسلمين على رسم واحد ونظام واحد يكتب به المصحف ، وترتيب واحد للسور ، وغير ذلك من طرق الضبط التي يكتب بها المصحف وعصم المسلمين من الخلاف والفتنة بفضل الله العظيم الذي تكفل بحفظ كتابة مقروءا ومكتوبا . والنص القرآني المكتوب ليس أساسًا في تعلم القرآن الكريم بل النص المحفوظ الذي تنوقل سماعًا بالرواية المتواترة عن ثقاة الأمة من المقرئين .

وقد نقلت لنا بعض كتب التراث أخبارا عما كان مكتوبا في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي نسخ مصحفا نسب إليه ، وكتبه على قراءته التي تعلمها من النبي ﷺ ، وسمعه ﷺ يقرأ بها ، وكتب أبي بن كعب مصحفًا أيضا ، ونسب لغيرهما من بعض الصحابة مصاحف شخصية تخص كاتبها فقط ، وكان أحيانا يدون فيها بعض المعاني أو الملاحظات ، وكانت تخالف المصحف الإمام في بعض وجوه الرسم والترتيب ، وبعضها لم يكن كاملا ، فظن أرباب الجهل والفتنة في زمن متقدم أن المصاحف بها خلاف ولم تكن مصاحف على النحو الذي كتب به المسلمون المصحف الإمام ، وظن بعضهم دون قصد أن بعض المعاني جزء من الآية أو وجه القراءة ، واتخذ بعض المضللين من ذلك مطعنا يشككون به في القرآن الكريم وسلامة نصه ، وقد تصدى لهم العلماء قديما وحديثًا[1] .

وقد أجمع المسلمون على ما تضمنته المصاحف العثمانية ، وترك ما خالفها من زيادة أو نقص مما كان مسموحا به في كتابة القرآن الكريم للتعليم والتدريب ، وأقر علماء المسلمين كذلك كل رواية صحت عن النبي ﷺ ووافقت الرسم العثماني ، وبذلك اجتمع للقراءة الصحيحة شرطان: صحة السند ، وموافقة الرسم ، وأضافوا إليها شرطا ثالثًا ، وهو موافقة عرف العربية وقواعدها ؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، وقد أقر المصحف الإمام ما استقر في العرضة الأخيرة التي عرض فيه النبي ﷺ على جبريل عليه السلام وأقره عليها ، بعد إسقاط ما نسخ ، وإجازة لحون العرب في القرآن ولهجاتهم .

وكان الرسم خلوا من النقط والشكل فاحتمل وجوه القراءات التي أجازها النبي ﷺ ،

---

(1) ارجع إلى كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة وقد ناقش القضايا التي أثارها الزنادقة في زمنه حول القرآن الكريم .

وقد احتمل الرسم العثماني القراءات المشهورة التي رويت بالتواتر عن جمع كبير من الصحابة والتابعين ، وأصبح للقراءة الصحيحة قانونا عاما يحكمها موجزا في ثلاثة شروط[1]:

الأول: أن تصح نسبتها إلى رسول الله ﷺ .

الثاني: أن توافق الرسم العثماني ولو احتمالا .

الثالث: أن توافق العربية ولو بوجه .

وقد اشتهرت من بين القراءات القرآنية سبع قراءات مشهورة ، نسبت للأئمة السبعة المعروفين بصحة النقل ، واتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ وهم[2]:

1- نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، وأصله من أصبهان ، وهو من قراء المدينة المنورة ومات بها سنة تسع وستين ومائة .

2- ابن كثير ، وهو عبد الله بن كثير الداري ، مولى عمرو بن علقمة الكناني ، وهو إمام أهل مكة في القراءة ، ومات بها سنة عشرين ومائة .

3- أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الملك بن الحصين الخزاعي التميمي ، وهو من قراء البصرة ، ومات سنة أربع وخمسين ومائة بالكوفة .

4- ابن عامر ، وهو عبد الله بن عامر اليحصبي ، قاضي دمشق ،و هو من قراء الشام وهو من التابعين ، ومات بدمشق سنة ثماني عشرة ومائة . وليس في القراء السبعة من العرب غيره وغير أبي عمرو بن العلاء الخزاعي التميمي ، والباقون موال (من غير العرب).

5- عاصم بن أبي النجود ، ويقال له: ابن بهدلة ، وهو من التابعين ، وقد حفظ عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهم . ونقل القراءة عنه حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي

---

(1) النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري 1/ 9 .

(2) ارجع إلى الحجة في القراءات السبع للإمام بن خالويه ، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ص 61 ، 62. وقد وقع اختيار ابن مجاهد على هؤلاء السبع .

obeikandi.com

الكوفي ، وهي المشهورة في مصر . ومات عاصم بالكوفة سنة ثمان وقيل سنة سبع وعشرين ومائة .

6- حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الزيات ، وهو من قراء الكوفة أيضا ، ومات بحلوان من مصر سنة ست وخمسين ومائة .

7- الكسائي ، وهو علي بن حمزة النحوي مولى لبني أسد ، وهو من قراء الكوفة أيضًا ، ومات سنة تسع وثمانين ومائة .

وقد وقع اختيار ابن مجاهد على هؤلاء السبع ، لكثرة الرواة عنهم ، وشيوع قراءاتهم أكثر من غيرها ، وشهرتهم بالثقة والأمانة وطول ملازمتهم القراءة ، وقراءاتهم لا تخرج عما روي عن الصحابة ولا تخرج عن عرف العربية والرسم المصحفي .

واشتهر إلى جوار القراءات السبع ثلاث قراءات المكلمة للعشر ، وهي أيضا مشهورة وأصحاب هذه القراءات:

1- أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني (ت 130هـ) ، روى عنه قراءته نافع بن أبي نعيم (أحد القراء السبعة) وأقرأ بها غيره ، ورواها عنه جماعة منهم قالون ، وكان أبو جعفر قد عرض قراءته على عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، وأقره عليها ، وصلى وراءه عبد الله ابن عمر -رضي الله عنهما- وهو يقرأ بها .

2- يعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري(ت 205هـ) ، كان إمام جامع البصرة وإمام قراء البصرة في زمانه .

3- خلف بن هشام البغدادي (ت 299هـ) ، وهو أحد الأئمة الثقات الزاهدين .

وهذه القراءات العشر متواترة صحيحة مقطوع بها ، وأجمع على القراءة بها علماء الأمة في القديم والحديث ، واشتهرت في الأقطار الإسلامية .

وبقيت أربع قراءات أخرى غير مشهورة في الأقطار الإسلامية ، ولكنها معروفة عند المتخصصين في القراءات ، وقد عرفت بالقراءات الشاذة ؛ لأنها لم تنتشر في الأقطار الإسلامية ، ولم تبلغ شهرتها والإجماع عليها درجة القراءات العشر السابقة ، كما خالفت

هذه القراءات في بعض الوجوه ، وانفردت بها ، ولم يكثر رواتها ، فقد وردت من طرق غريبة ، وخالفت الرسم العثماني في بعض الحروف ، وخالفت عرف العربية في بعض الوجوه أيضا ، وهذا لا يعني رفضها وفسادها ، ولكن وجه الشذوذ فيها أنها حملت بعض مظاهر الشذوذ في لهجات العرب التي ارتفعت عنها القراءات المشهورة ، بيد أن أهل العربية يأخذون بوجوه القراءات الشاذة في قواعد اللغة ، ويجدونها مادة غنية في البحث النحوي والصرفي والمعجمي . وأصحاب هذه القراءات الأربع:

1- الأعمش الكوفي . 2- الحسن البصري. 3- ابن محيصن المكي. 4- اليزيدي البصري .

وقد أجمع العلماء قاطبة على الاحتجاج بالنص القرآن ، وجعلوه في المرتبة الأولى من الاحتجاج ، وأجمعوا كذلك على الاحتجاج بالقراءات القرآنية المشهورة (السبع والعشر) ، وأجازوا الاحتجاج بكل ما ورد أنه قرئ به سواء كان متوترا ، أما آحادا ، أما شاذا . قال السيوطي: «وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية ، إذا لم تخالف قياسا معروفا ، بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه ، وإن لم يجز القياس عليه . كما يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه ، ولا يقاس عليه نحو: «استحوذ» و«يأبى»[1].

وأكد السيوطي على هذا فقال: «وأما ما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة لا أعلم فيه خلافا بين النحاة ، وإن اختلف في الاحتجاج بها في الفقه ، ومن ثم احتج على جواز إدخال «لام» الأمر على المضارع المبدوء بـ «تاء» الخطاب . بقراءة ﴿**فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ**﴾ [يونس: 58][2] ، كما احتج على إدخالها على المبدوء بـ «النون» بالقراءة المتواترة: ﴿**وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ**﴾ [العنكبوت: 12] ، واحتج على صحة قول من قال: إن «الله» أصله «لاه» بما قرئ شاذا : ﴿**وهو الذي في السماء لاه وفي الأرض لاه** ﴾[الزخرف:84][3].

---

(1) الآية 32 سورة التوبة (ويأبى) والشاهد فتح الباء ، والقياس كسرها ، وليس في العربية (فعل ، يفعل) بفتح العين في الماضي والمضارع – وهو غير حلقي العين واللام – إلا هذا الحرف الفذ .

(2) وهي قراءة «أبي» «وأنس» و «يعقوب» رضي الله عنهم . البحر المحيط لأبي حيان 5/ 12 .

(3) الاقتراح للسيوطي ص 152 ، 153 .

وقد تتبع علماء العربية وجوه القراءات شرحا وإعرابا، وفصلوا الأمر في ذلك تفصيلا لم يترك ادعاء لمدع ، ولا ظنا لظان ، ويعد ابن مجاهد هو أول من حدد القراءات ، واختار من أشهرها وأكثرها رواية سبعا ، وفتح باب الاحتجاج بالقراءات في مجال اللغة والنحو ، فتسابق تلاميذه ومعاصروه في التأليف في هذا الفن ، فوضع أبو علي الفارسي كتابه الشهير «الحجة» في قراءة السبعة الذي غاص فيه في أعماق اللغة ، وتوسع في موضوعاتها ، وناقش كثيرا من قضايا النحو إذا اعترضته مسألة فيه ، مما زاد الكتابة صعوبة ، فتجاوز حاجة القراء ، وصعب فهمه على كثير من باحثي العربية فجفوه ، فألف أحد معاصريه ، وهو ابن خالويه كتابه في القراءات عرف بين القراء باسم الحجة ، وقد وقفه على القراءات فقط ، فجعل كتابه موقوفا على القراءات القرآنية في ضوء النحو واللغة ، وقد سلك فيه أيسر سبيل ليسهل طلبه وفهمه .

ويمكن فهم منهجه من خلال بعض النماذج التي نذكر منها: قوله تعالى: (مالك يوم الدين) يقرأ بإثبات الألف ، وطرحها . فالحجة لمن أثبتها أن المَلِك داخل تحت المالك والدليل له: قوله تعالى: (قل اللهم مالك الملك) والحجة لمن طرحها: «أن المَلِك أخص من المالك وأمدح ؛ لأنه قد يكون المالك غير مَلِك ، ولا يكن المَلِك إلا مالكا» .

وقوله تعالى: الصراط: تقرأ بالصاد والسين وإشمام الزاي. فالحجة لمن قرأ بالسين: أنه جاء به على أصل الكلمة . والحجة لمن قرأ بالصاد: أنه أبدلها من السين لتؤاخي السين في الهمس والصفير ، وتؤاخي الطاء في الإطباق ، لأن السين مهموسة ، والطاء مجهورة، والحجة لمن أشم الزاي: أنها تؤاخي السين في الصفير ، وتؤاخي الطاء في الجهر»[1]. وقد عالج القراءات في إطار الأصوات ، واللغة ، وتناول بعض وجوه الأعراب ، وبعض قضايا الصرف.

---

(1) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ص61 ، 62.

وقد وقف أبو علي الفارسي وابن خالويه كتابيهما على القراءات السبع المشهورة والمجمع عليها لقراءة الأئمة الخمسة: ابن كثير ، وأبي عمر بن العلاء ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ونافع المعروفين بصحة النقل ، وإتقان الحفظ ، والمأمونين على تأدية (الرواية) واللفظ ، وقد تبنى كل واحد منهم مذهبا من مذاهب العربية ، وقياسا من أقيستها ، وقد تركا الشاذ المنكور ، وهذا لا يعني أنهما لا يعتدان بما فوق القراءات السبع كالعشر والأربع عشرة الشواذ ، فابن خالويه رأي ألا يثقل على القراء بما أثقلهم به أبو علي الفارسي بكتابه الضخم الذي توسع فيه ، فكان ذلك سببا في هجره ، فوقف ابن خالويه كتابة على المشهور فقط ، أما الفارسي ، فقد ذكر عنه تلميذه ابن جني أنه هم أن يضع في القراءات الشاذة كتابا يعالجها فيه نحويا وصرفيا ولغويا ، مثل ما فعل في السبع المشهورة ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يبدأ فيه ، فقام ابن جني بما هم به أستاذه ، وأعلن صراحة أنه بكتابه يستكمل مشروع أستاذه في معالجة جميع القراءات القرآنية: قال ابن جني في مقدمة كتابه: «قد هم أن يضع يده ويبدأ به ، فاعترضت خوالج هذا الدهر دونه ، وحالت كبواته بينه وبينه» . إذ أعلن ابن اجني أنه من أجل هذا تجرد للقراءات الشاذة نيابة عن شيخه في الاحتجاج لها ، ويؤدي حقها عليه ، كما أدى شيخه حق القراءات غير الشاذة ، ورأى أن من الضروري بحثها وتبيين وجوه صحتها ؛ لأنها ضاربة في صحة الرواية بقوة ، فلها سند يقويها ، وتوافق سمت العربية ولا تخرج عليها ، وذات مادة غزيرة في البحث اللغوي . وابن مجاهد هو الذي صنف القراءات إلى مشهورة ، وقراءات غير مشهورة عرفت بالشاذة ، وغلب الشاذ على ماعدا القراءات السبع التي اختارها ابن مجاهد، وصنف فيها كتابه «قراءات السبعة»[1] ، فاستن به علماء القراءات واللغة في هذا التصنيف وارتضوا عمله ، وأقاموا عليه بحوثهم في القراءات ، فجاء ابن جني وألف كتابه «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها»[2] ، استكمالا لكتاب أستاذه أبي علي الفارسي (ت377)

---

(1) ارجع إلى: النشر في القراءات العشر لابن الجزري 1/ 36 .

(2) حقق الكتاب الأستاذ على النجدي ناصف ، والدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور عبد الفتاح شلبي وصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

«الحجة في الاحتجاج للقراءات السبعة» ، وقد ألف ابن جني كتابه في آخر حياته ، واتبع فيه منهج أستاذه ، فهو يعرض القراءة ، ويذكر من قرأ بها ، ثم يبحثها لغويا ويذكر فيها ما أمكن من شواهد ، أو يذكر نظيرا لها فيقيسها عليه ، أو لهجة يردها إليها أو يتأولها ، أو يوجهها على معنى دون معنى أو وجه دون وجه مجملا أحيانا ومفصلا أحيانا أخرى حسب ما يقتضيه المقام وإثبات الحجة ، وتوضيح الفكرة .

وعالج ابن جني هذه القراءات في إطار النحو والصرف معالجة وافية شافية ، ولم يألُ جهدًا في ذلك ، فقد كان باعثه على تأليفه التقرب به إلى الله عز وجل ، ولهذا أسماه «المحتسب» ، وقد ذكر في وجوه القراءات جميع المعاني التي تحتملها ، وبحث لها عن مخرج في العربية ، ومعظمها مرده إلى اختلاف لهجات العرب ، ومذهب أصحابها في العربية .

ثانيا ـ الحديث النبوي الشريف

الحديث: كلام رسول الله ﷺ ، المنسوب إليه لفظا ومعنى أو معنى فقط ، وهو بلفظ الراوي ، وهو في اصطلاح المحدثين: قول أو فعل أو تقرير نسب إلى النبي ﷺ ، فالحديث الشريف قد يكون قولا قاله ﷺ ، ويروي عنه ، وقد يكون قول صاحبي حدث بما رآه من فعل النبي ﷺ ، أو أقره النبي ﷺ على فعل ، أو صدق قوله .

وموضوع بحثنا ما نسب إليه ﷺ من قول ، لأن مدار بحثنا اللفظ المنسوب إليه ﷺ من قول ، فلفظ كلامه لا يدخل فيما يطلق عليه كلام العرب ، فقد كان النبي ﷺ يتكلم بوحي قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: 3: 5] ، أي ما يقول قولا عن هوى وغرض ، فإن ما ينطق به بوحي من ربه ، فلا يقول إلا حقا . والوحي هو جبريل عليه السلام ، الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: 19: 21] فجبريل عليه السلام أمين الوحي . والقرآن الكريم بوحي الله لفظا ومعنى ، والحديث معناه من الله ، ولفظه من الرسول ﷺ ، وهو المؤتمن بلسانه العربي على تبليغ ما أمر به: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل:44] .

وقد أجمع العلماء قاطبة أن «أفصح الخلق على الإطلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ حبيب رب العالمين جل وعلا ، قال: رسول الله ﷺ: «أنا أفصح العرب» ، وروى: «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش» . وتقدم حديث: «أن عمر قال: يا رسول الله مالك أفصحنا ، ولم تخرج من بين أظهرنا ...» . وروي البيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن إبراهيم عن الحرث التيمي: أن رجلا قال: يا رسول الله ، ما أفصحك: فما رأينا الذي هو أعرب منك . قال: «حق لي ، فإنما أنزل القرآن علي بلسان عربي مبين»[1].

وقد اختار الله عز وجل أفصح اللغات وأبينها لسانا لكتابه ولرسوله ﷺ ، قال الخطابي: «اعلم أن الله لما وضع رسوله ﷺ موضع البلاغ من وحيه ، ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربها ، ومن الألسن أفصحها وأبينها ، ثم أمده بجوامع الكلم. قال: «ومن فصاحته أنه تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ، كقوله: «مات حتف أنفه» ، وحمى الوطيس» و «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» ، في ألفاظ عديدة تجري مجرى الأمثال»[2].

وقد اختلف علماء العربية الأوائل في الاحتجاج بلفظ الحديث الشريف في قضايا اللغة وقواعد النحو الصرف ، ومدار الخلاف في حقيقة نسبة لفظ الحديث إلى النبي ﷺ ، فالحديث الشريف تجوز روايته بالمعنى ، فيكون بلفظ الراوي ، والمعني للنبي ﷺ ، وهذا النوع قد تطول الرواية فيه وتقصر حسب حرص الراوي على أداء معنى الحديث ، ويحرص الراوي على الإتيان بلفظ النبي ﷺ إن استطاع ، وهذا في الأحاديث المطولة ، ولهذا تعددت الروايات في الحديث الواحد والمعنى واحد ، وهذا ليس مطردا في كل الروايات ، فقد تكون

---

(1) روى الإمام أحمد: في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ أنه قال له عندما أمسك عن كتابة الحديث: اكتب فهو والذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق» وروى أيضا عن أبي هريرة: «لا أقول إلا حقا» ، قال بعض أصحابه: «فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقا» وهذه الأحاديث السابقة التي رويت في فصاحة النبي ﷺ صحيحة المعنى بيد أنها واهية السند، وضعفها العلماء. ونص الأحاديث التي رويت بلفظ النبي ﷺ أفضل دليل على فصاحته.

(2) المزهر جـ 1/ 209 .

الروايات كلها بلفظ واحد متفق عليها. وهذا مما لا شبهة في صحة نسب لفظه إلى النبي ﷺ ، ومن الأسباب التي دفعت علماء العربية إلى عدم الأخذ بالحديث جنس الراوي ، فقد يكون الراوي من الموالي الأعاجم ، واللغة وقواعدها لا تؤخذ من ألسنة غير العرب ، فتوهموا أنه لا يحسن العربية ، ولا يملك سليقة أبناء العربية ، وهذا أيضا غير مطرد ؛ لأن أبناء الأعاجم هم الذين نبغوا في علوم العربية ، وألموا بها ، فكثير من القراء الذين أخذت عنهم القراءات من الموالي مثل: ابن كثير (120هـ) ونافع (169هـ) وعاصم (128هـ) ، والكسائي (189هـ) ، وحمزة (156هـ) .

وكثير منهم اشتغل بعلم الحديث مثل: البخاري ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجة ، والترمذي ، وهؤلاء ليسوا بعرب وقد أجادوا اللغة العربية وأتقنوها ، وبعض أعلام اللغة والنحو ليسو بعرب مثل: سيبويه إمام النحاة ، والكسائي ، ونفطويه ، وغير هؤلاء من علماء التفسير والأدب ممن تعلموا العربية وأحسنوا الكتابة فيها .

وقد وقف علماء النحو المتقدمين موقفا غريبا مغاليا من الاحتجاج بالحديث ، وهاجموا من يحتج به ، فتوارى كثير من العلماء من الاحتجاج بالحديث خشية النقد ، وهو يعلم في نفسه يقين ما هو عليه من صحة الاحتجاج ، ولكنه يستحي من المعارضين في الاحتجاج بالحديث أو الأخذ به في اللغة والقواعد النحوية ، ودعواهم في ذلك أن الأحاديث التي صح لفظها في النسبة إلى رسول الله ﷺ قليلة جدا ، ويوجد ذلك في الأحاديث القصار التي استدل بما ثبت أنها على اللفظ المروي عن النبي ﷺ ، ولكنهم رأوا أن غالب الأحاديث مروي بالمعنى ، وقد تأولتها الأعاجم ، وترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مرويا على أوجه شتى بعبارات مختلفة .

وقد أنكر هؤلاء المغالون على ابن مالك صاحب الألفية استشهاده بلفظ الحديث واستشهاده في القواعد النحوية بالألفاظ الواردة في الحديث ، وإثباته القواعد النحوية ببعض الأحاديث ، ولم يعرف غيره من المتقدمين استدل بالأحاديث على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب .

ولم يعرف عن المتقدمين من علماء العربية أنهم احتجوا به ، فلم يرد ذلك عن أبي عمرو

ابن العلاء ، وعيسى بن عمر ، والخليل بن أحمد ، وتلميذه سيبويه ، وهؤلاء أئمة البصرة ، والكسائي ، والفراء ، وعلي بن مبارك الأحمر ، وهشام الضرير ، وهؤلاء أئمة الكوفيين . فهؤلاء جميعا لم يستدلوا بالحديث في قواعد العربية . وتبعهم في ذلك بعض المتأخرين من المدرستين ، وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد والأندلس وحجتهم في عدم الاستدلال بالحديث في قواعد اللغة عدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ ، قال أبو حيان: «إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ إذ لو وثقوا بذلك ، لجري مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلية»[1] . وقد رد أبو حيان ذلك لأمرين:

أحدهما: أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى ، فاختلف ألفاظ الرواية باختلاف لفظ الرواة ، ومتن الرواية الذي قاله الرسول ﷺ واحد . ومثال ذلك الحديث الذي رواه سهل بن سعد الساعدي ، وقد جاء بهذه الروايات عن النبي ﷺ : «زوجتها بما معك من القرآن»[2] ، «ملكتها بما معك» ، «خذها بما معك» ، وغير ذلك من طرق الراوية بألفاظ متعددة في معنى واحد ، وليس للنبي ﷺ من تلك الروايات إلا لفظ واحد ، فأتت الرواة بالمرادف ولم تأت بلفظه . ويرجع ذلك لأسباب منها: جواز صحة الإتيان بالمعنى دون اللفظ ، وتقادم السماع وعدم ضبطه بالكتابة ، والاتكال على الحفظ ، ويصعب حفظ متن الحديث بلفظ في الأحاديث الطوال .

وقد صرح بعض علماء الحديث أنهم يروون الحديث بالمعنى لصعوبة ضبط اللفظ الذي وضع عليه . قال سفيان الثوري: «إن قلت لكم: إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني» . إنما هو المعنى ، ومن نظر في وجوه روايات الحديث علم علم اليقين أنهم يرون بالمعنى ، وهذا سبب تعدد لفظ الحديث في كتب الحديث ، ولاشك أن اختلاف الرواية سبب في اختلاف طول الحديث في بعض الروايات وقصره في أخرى.

---

(1) الاقتراح للسيوطي ص 158 .

(2) رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والنسائي ، والترمذي وابن ماجة في كتاب النكاح بروايات مختلفة . وهو بلفظ البخاري عن سهل بن سعد الساعدي «قال: اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن» . وذلك في تزويج الرجل المعسر .

والأمر الثاني: أنه وقع اللحن في بعض ما روي من حديث ، لأن الذين وقع منهم اللحن لم يكونوا عربا أقحاحا أو عرب الطبع ، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو ، فوقع في كلامهم ، وهم لا يعلمون ، كما وقع في بعض روايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، والرسول ﷺ ، كان أفصح الناس ، وأبعدهم عن اللحن ، وكان يتكلم بأفصح اللغات ، وأحسن التراكيب ، وأشهرها ، وأجزلها ، وكان يخاطب العرب بألسنتهم.

ولا نميل إلى هذا الرأي في عمومه ، فقد وقع اللحن في كلام أبناء العربية وهو في غيرهم أكثر ، فقد فشى اللحن بانتشار الأعاجم وانتقال العرب إلى الحضر فتغير لسانهم ، ولم يكن اللحن متفشيا في رواة الحديث ، ولم يبلغ هذه الدرجة على ما جاء في كلام أبي حيان وغيره ، فقد ذكرنا آنفا أن كثيرًا من الأعاجم الذين تربوا بين ظهراني قبائل العرب ، وصاروا موالى لهم ، تعلموا منهم اللسان العربي ، وحذقو، وحققوا فيه مكانه فاقت أبناء العروبة ، وشواهد ذلك أعلام العربية من الموالى وأعلام الحديث والتفسير والقراءات والأدب .

ولم يكن اللحن متفشيًا فيمن ولدوا من أبناء الأعاجم بين العرب أو نشئوا فيهم ، بل كان متفشيًا فيمن كان يتكلم لسانًا غير عربي قبل أن يتعرب ، وقد كان علماء العربية القدماء مغاليين في حكمهم لتعصبهم لأبناء جلدتهم واعتقادهم أن العرب مفطورون على الطبع والسليقة العربية ، وأنهم ينطقون العربية نطقًا صحيحا بالفطرة التي جبلوا عليها ، وصارت طبعا فيهم بالوراثة ، وهذا غير صحيح فالطفل يتقن اللغة التي تعلمها في المهد ، ونشأ عليها ، فأبناء العرب الذين يولدون خارج أرض العروبة لا يحسنون اللسان العربي بسليقتهم ، ولم ينفعهم الطبع ، وصاروا في ذلك مثل الذين اتهمهم القدماء بأنهم ضعاف في اللغة ، فالعربية هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي. روى أن النبي ﷺ سمع منافقا نال من عروبة سلمان الفارسي ، فدخل المسجد مغضبًا ، وقال: «أيها الناس ، إن الرب واحد والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي»[1] . وأسر الروم صهيبا رضي الله عنه وهو غلام وعاش ببلاد الروم زمنا وتعلم لسانهم ، ثم قدم مكة وعاش بها ، وكان لا يحسن نطق صوت الحاء الحلقي فينطقه

(1) لم أعثر عليه في مصادر الحديث .

هاء ، تأثرًا باللغة الرومية التي كان يتحدثها قبل العربية[1] لغة آبائه . وهذا يدل أن لا علاقة بين الجنس واللغة ، وأن ما ذكر عن السليقة العربية أو الطبع العربي وهم وقع فيه القدماء ، والأصوب أن نقول إن البيئة اللغوية التي ينشأ فيها الطفل هي التي تمكنه من اللغة التي يتقنها لطول عهده بها وممارسته لها وتواصله مع أهلها ومرانه عليها .

ولم يكن مذهب القدماء جميعا ترك الاحتجاج بالحديث ، فقد خالفهم في ذلك ابن مالك ، وابن خروف في الأندلس ، وابن هشام ، والرضي (ت 688هـ) ، والسهيلي (ت 581هـ) . الذي يعد أول من احتج به ، وتبع هؤلاء كثير من المتأخرين ، وذهب المحدثون إلى ضرورة وضع الحديث في الاحتجاج في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم ، لأنهم نظروا في آراء القدماء ، ولم يأخذوا بكثير منها خاصة اعتمادهم على نظرية الطبع والسليقة التي أودت بهم إلى هذا الرأي المتعسف في كثير من وجوهه .

وقد دون الحديث في الفترة التي ظهر فيها تدوينهم العلوم الأخرى ، فقد بدأ تدوينه في القرن الأول ، واتسع في الثاني ، واكتمل في القرن الثالث ، وقد أجاز علماء العربية الاحتجاج بكثير من علماء العرب حتى القرن الثالث ، وامتد عند بعضهم إلى ما بعد ذلك ، فقد كانت هناك قواعد لغوية تحكم علماء الرواية ، وكان معظمهم علماء بالعربية وتعلموا في مدارس أعلام النحو واللغة والشعر ، وألفاظهم في رواية الحديث مما يحتج به ، فالإمام مالك لم يبرح المدينة المنورة ، وكان راوية للحديث ، وكذلك الإمام الشافعي الذي يعد حجة في اللغة فقد نشأ بين فصحاء العرب من هذيل وغيرها وذهب العلماء إلى الاحتجاج بكلامه لفصاحته ، ومما يثير العجب أن علماء العربية يحتجون بشعر الإسلاميين أمثال: الطرماح ، والفرزدق ، وجرير ، وقيس بن الرقيات وغيرهم ، ولا يحتجون بالحديث الذي رواه المعاصرون لهم ، وهم أهل ثقة وأمانة في النقل والرواية ، وكانوا أضبط للغتهم من هؤلاء الشعراء .

---

(1) الطبقات الكبرى ابن سعد ط بيروت جـ3 وجاء في ترجمة صهيب –رضي الله عنه– أنه من أصل عربي . وارجع إلى: من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ص20 ودراسات لغوية ، للدكتور عبد الصبور شاهين ط1995م ص95 ، 96 .

وقد أكدت مصادر كثيرة أن بعض الصحابة كانت لهم مدونات في الحديث الشريف ، وأشهرهم في ذلك عبد الله بن عمرو بن العاص الذي دون الحديث في عصر النبوة في صحف ، وهي أكثر حجة مما نقل عن العرب شعرًا ونثرًا ، وتعدد رواية الحديث الأخرى تعد نصًا غنيا في اللغة ، لأنها قد جمعت في المعنى الواحد أكثر من لفظ مترادف ، وتعدد الرواية واختلافها مما يؤكد صحتها ، ولكن كلام العرب روى من وجه واحد لا تعدد فيه وروايته هي الأخرى لم تصل إلى درجة الدقة والتحقيق والأمانة التي بلغها الحديث في روايته ، فتوثيق رواية الحديث فيما يعرف بعلم الجرح والتعديل تجعل الحديث الشريف أقوى من الشعر المروي . وقد جانب القدماء الصواب عندما وضعوا مرويات الحديث كلها في منزلة واحدة ، فهناك أحاديث كتبت في عصر النبوة ، ورسائله ﷺ إلى القبائل والملوك ، والتي بعثها إلى عماله في أعمالهم وقواده في السرايا ، والأقوال النبوية المأثورة التي صارت أمثالا وحكما يحتج بها في المواقف المختلفة مثل: «الآن حمى الوطيس» ، و «الحرب خدعة» ، و«إن من البيان لسحرًا» ، وغير ذلك .

وقد وجه الإمام الشاطبي نقدا لاذعاً لهؤلاء العلماء الذين تصدوا للاحتجاج بالحديث أو لم يحتجوا به وجعلوه لا يرتفع إلى مرتبة الاحتجاج ، فقال: «لم نجد أحدا من النحويين استشهد بحديث رسول ﷺ ، وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم الذين يبولون على أعقابهم وأشعارهم التي فيها الفحش والخني ، ويتركون الأحاديث ، لأنها تنقل بالمعنى وتختلف روايتها وألفاظها بخلاف كلام العرب وشعرهم ، فإن رواته اعتنوا بألفاظها لما ينبني عليه من النحو ، ولو وقفت على اجتهادهم قضيت منه العجب ، وكذلك القرآن ووجوه القراءات. وأما الحديث فعلى قسمين قسم يعني ناقله بمعناه دون لفظه ، فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان ، وقسم عرف اعتناء ناقله بلفظه لمقصود خاص كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته ﷺ فهذا يصح الاستشهاد به في العربية ، ...» .

ونود أن نشير إلى أن اللحن الذي وقع في بعض رواية الحديث ، وقع مثله في نطق بعض علماء العربية المشهورين في قراءة القرآن كالكريم وكلام العرب ، وكتب النحو واللغة بها شواهد في ذلك لمن أخطأ ، وهو يقرأ القرآن أويخطب ، وقد خالف بعض الشعراء

قواعد العربية ورد عليه كثير من علماء العربية وأشهرهم في ذلك الفرزدق الذي يحتج بشعره في النحو واللغة ، فلم تكن آفة اللحن في رواية بعض الحديث فقط ، ولكن وقع في لسان العرب ، ولكن علماء العربية اختصوا علماء الحديث فقط باللحن دون بقية علماء العرب ، وكثير من رواة الحديث كانوا رواة للشعر والمأثور من كلام العرب الفصحاء ، وكأن الموالي قد انفردوا برواية الحديث ، وكثير منم كان راوية للغة والشعر ، والغريب في ذلك أن الموالي من علماء اللغة رفضوا رواية أضرابهم من الموالي رواة الحديث ، فكان سيبويه ، وهو من الموالي لا يحتج بالحديث وكذلك الكسائي .

وقد وجدنا علماء المعاجم يحتجون بحديث رسول الله ﷺ ، وأكثرهم في ذلك ابن منظور صاحب لسان العرب ، ومما يلفت الانتباه أن علماء اللغة بحثوا غريب الحديث في ضوء لغات العرب ، وهم في ذلك يعترفون بلفظه العربي الفصيح ، ثم نقضوا هذا الصنع بتركه في الاحتجاج في النحو ونقد من يأخذ به وتضعيفه وتسخيف رأيه وحجته .

وقد عالج علماء اللغة اللحن الذي ورد في بعض المرويات والألفاظ الغريبة التي لم يجدوها في لسان العرب ، وقد صرحوا أن اللحن وقع من توهم الراوي ، وأن الألفاظ الغريبة بعضها كان مستعملا في عصر النبوة واحتفظ بها المتن ، وأهملت من الاستعمال زمن التدوين أو هجرت في الخطاب ، فأصبحت غريبة ، وما لم يوجد في كلام العرب من الألفاظ المنكرة الموضوعة كان تصحيفا توهمه القارئ من الرسم أو الخط .

ولم يكن هذا شأن الحديث وحده ، بل شأن بعض وجوه القراءات غير المقبولة في القرآن الكريم ، وبعض كلام العرب ، والباحث في نشأة علم النحو يجد أن من دواعي وضع علم النحو ووضع النقط والشكل في الرسم وقوع اللحن في القراءة ، واحتمال الرسم بعض وجوه القراءة المختلفة ، فتتبع علماء العربية والإسلام المخلصون الورعون الآفات واجتثوها من جذورها ، وأصلحوا الفتوق ، ليقطعوا بذلك لسان الفتنة ، ولم يألوا جهدا في المساهمة بكل ما تطلبه العربية من زاد وعتاد تواجه به وعثاء السفر ونوازل الدهر في رحلتها في الحياة ، وغايتهم وجه الله تعالى وابتغاء رضوانه .

ثالثا: كلام العرب

وهو كلام من يحتج بقوله من العرب الفصحاء جاهليين وإسلاميين الذين عرفوا بالفصاحة والبيان ، ويقسم كلام العرب إلى نوعين: كلام منظوم ، وهو الشعر ، وكلام منثور وهو النثر وما يدخل تحته من خطب ، وأمثال ، وحكم وأقوال مأثورة سيارة ، ويدخل فيه أيضا كلام أهل الفصاحة من قبائل العرب ممن لم تشب ألسنتهم شائبة اللحن ، وهم أهل البادية ممن لم يخالطوا الأعاجم ولم يسكنوا الحضر ، ولم تلن عريكتهم اللغوية ، ولم تضعف ملكتهم ولم تنقد لضعيف اللغة .

وقد استطاع علماء العربية أن يجمعوا تراث الجاهلية ودونوه ، ولكن هذا التراث لا يصل مداه في الجاهلية أكثر من مائتي عام قبل الإسلام تقريبا ، وما قبل ذلك لم يصلنا منه شيء ذو قيمة في البحث اللغوي ، ونعني بذلك تراث العربية الشمالية المنتشرة في الحجاز وأقاصيها ، تلك التي نزل بها القرآن الكريم ، ويرجع ذلك إلى أن الأمية كانت متفشية فيهم ، فلم يدونوا تراثهم الأدبي ، فضاع منه الكثير ولم يبق منه إلا ما حفظ في صدورهم وتوارثوه حتى دون في الإسلام في القرن الثاني الهجري والثالث ، وهو قليل جدا قياسا إلى ما فقد ، فلم يكن للجاهليين صنعة في جاهليتهم إلا الشعر والخطابة فتباروا فيهما ، وحفلوا بميلاد الشعراء والخطباء المفوهين .

وقد احتج علماء العربية بكلام العرب الفصحاء الموثوق بعربيتهم على اختلافهم وأشهرهم قبائل: قريش ، تميم ، قيس ، أسد ، هذيل ، كنانة ، واحتج بعضهم بلغة لخم ، وخزاعة ، وبعض الطائيين ، وقضاعة ، وهوزان ، وبني سعد .

وهذا القبائل كانت تعيش في الحجاز ونجد وتهامة وأطراف بلاد الشام الجنوبية ، وهم عرب الشمال قياسا إلى الجنوبيين وهم أهل اليمن وعمان ، وقد نزل القرآن الكريم بلسان أهل الشمال في عموم لفظه ، وهذا لا يعني وجود حدود فاصلة بين اللهجات ، فقد كان هناك تداخل بين لهجات القبائل المتجاورة ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «نزل

القرآن بلغة الكعبين»[1] يريد كعب بن لؤي جد قريش ، وكعب بن عمرو جد خزاعة قال أبو عبيد: «يعني أن خزاعة جيران قريش ، فأخذوا بلغتهم» . وقيل نزل القرآن بلغة مضر ، ومضر هي: قريش ، وكنانة ، وأسد ، وهذيل ، وتميم ، وضبة ، وقيس . وهذه القبائل أسند إليها معظم اللهجات المشهورة ، ونقل عنها كثير من تراث العربية .

وقد وضع علماء العربية إطارًا مكانيا أو حدودا جغرافية للأماكن التي تسكنها بعض القبائل العربية وينقلون عنها اللغة ويحتجون بكلامها ويقيسون علي لغتهم ، ويقيمون عليه قواعد العربية الفصحى ، ولهذا فهم يأخذون عن عالية السافلة ، وسافلة العالية ، وهم سكان نجد والحجاز وتهامة فهؤلاء عالية بلاد اليمن وعمان ، وسافلة بلاد الشام والعراق ، والسافلة وهم أهل اليمن وعمان لا يدخلون ضمن قبائل الاحتجاج وليسوا ممن يؤخذ عنهم ، لأنهم تأثروا بالأحباش والفرس والهنود ، وتأثر أهل الشمال بمن جاورهم من الفرس والروم والأنباط والسريان وقبط مصر . ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء: « لا أقول: قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة ، وسافلة العالية» فسكان هذه المنطقة قد عاشوا في شبه عزلة عن الاحتكاك الدائم بالأمم المجاورة ، فسلمت لغتهم من اللحن والدخيل إلا في القليل النادر الذي لا يفسد عليهم لغتهم ولا يغيرها مثل ألفاظ الحضارة التي تتناقلها الأمم فيما بينها ، وقد عد علماء اللغة سكان نجد والحجاز أفصح العرب ، وأسلمهم لغة ، وأبعدهم عن اللحن والضعيف . فلم تتأشب لغتهم بالمجاورة ، ولم تفسد ألسنتهم بالمخاطبة ؛ لأنهم فيما بينهم عرب أقحاح في العربية يتحدثون لسانًا واحدًا ، وقد كان علماء اللغة ينزلون البادية ليجمعوا اللغة من ألسنة العرب ، ويدونوها ، ويجمعون الألفاظ والأشعار والأخبار ويسجلون ذلك كله في صحف ، وكانت هذه مادتهم في صناعة قواعد العربية وصناعة المعجم ، وأشهرهم في ذلك أبو عمرو الشيباني ، وقد سأل الكسائي الخليل: «من أين علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة» ، فذهب الكسائي إلى هذه البوادي ليجمع عنهم لغتهم وشعرهم وأخبارهم .

وقد حظيت قبائل عربية باهتمام علماء العربية فأكثروا النقل عنها ، وأشهرها: قيس

---

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشي 1/ 83 وتفسير القرطبي 1/ 61 .

وتميم ، وأسد ، وهم من سكان البادية ، وأخذت عنهم معظم لغة العرب وأقام علماء العربية على لغتهم قواعد النحو والصرف ، واتكلوا عليهم في الغريب ، ويليهم في ذلك: هذيل ، وبعض الطائيين وكنانة ، وقد دوّن العلماء شعر شعراء هذيل ، واهتموا به أكثر من عنايتهم بشعر غيرهم من القبائل .

وترك علماء العربية الأخذ عن القبائل التي تعيش في حاضرة العراق والشام واليمن لاحتمال تأثرهم بمن جاورهم ، ووقوع أثر متبادل بين اللغات المجاورة خلال تواصلهم ، فلم يأخذوا عن حضري قط ولا من سكان البراري ممن يسكنون أطراف بلاد الأعاجم مثل لخم وجذام لمجاورتهم أقباط مصر ، ولم يأخذوا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام من السريان والرومان وغيرهم ، وأكثرهم نصارى يستخدمون العبرية والآرامية . ولم يأخذوا من قبائل بكر ، لأنهم كانوا مجاورين للفرس والأنباط ، ولا من قبائل عبد القيس بالبحرين ، لأنهم كانوا مخالطين للهنود والفرس ، ومثلهم أزد عمان ، ولا يأخذون من أهل اليمن ، لأنهم خالطوا الهنود والأحباش ، وفي لهجتهم ما يخالف المشهور في العربية . واستبعد العلماء القبائل التي كانت تقع على طرق التجارة التي يمر بها من سبق ذكرهم ممن ضعف لسانهم أو تأثر بالأعاجم ، فاستبعدوا بني حنيفة وسكان اليمامة ، وثقيف بالطائف ؛ لأن تجارة اليمن كانت تمر بهم ، ولم يأخذوا عن حاضرة الحجاز ؛ لأن لسانهم العربي شابه اللحن والدخيل زمن التدوين بسبب هجرة الأعاجم إليها وما وصلوا إليه من رغد العيش من وراء الفتوحات الإسلامية ، فقد استقدموا الموالي إلى بلادهم ، وأكثروا من الإماء المجلوبات من الأسر ، فنشأ جيل ضعيف لغويا في هذه البيئة .

ويبين ابن جني علة عدم الأخذ عن أهل الحاضرة: «علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال وإفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ، فالمعول عليه إذا هو الفصاحة ، فلو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها وترك

تلقي ما يرد عليها»[1].

وكان مما انتقد به البصريون خصومهم الكوفيين أنهم يأخذون عن أهل الحضر ، ويتفاخرون عليهم أنهم يأخذون لغتهم من الأعراب أصحاب البداوة ، ولهذا لم يأخذوا عنهم اللغة لشكهم في مصدرهم. وقد امتد الأخذ من أهل البادية حتى آخر القرن الرابع الهجري ، بينما توقف الأخذ من عرب الأمصار في نهاية القرن الثاني ، وسبب ذلك أن لغة العرب ظلت صحيحة في بواديهم ، ولم تصب بآفة حتى نهاية القرن الرابع ، بيد أن لغة عرب الحضارة أو الأمصار أصابها بعض اللحن والضعف بهجرة الموالي إليها أو اختلاطهم بالأعاجم ، وظهور جيل جديد من المولدين تعلموا العربية بالصنعة والتلقين .

وأشهر علماء العربية الذين نزلوا البادية وتعلموا لسانها وأخذت عنهم اللغة: أبو عمرو بن العلاء المازني ، أحد القراء السبعة المشهورين وإمام البصرة في عصره ، وأعلم الناس بالعربية والشعر ومذاهب العرب ، وأفصحهم ، والخليل بن أحمد الفرهودي ، أو الفراهيدي أستاذ سيبويه ، وقد أجمع العلماء على نبوغه ، وحدة ذكائه ، وأنه لم يكن قبله ولا بعده مثله ، فهو مفتاح العلوم ، فقد سبق إلى بدائع لم يسبق إليها ، فمن ذلك أنه وضع أول معجم في العربية وهو «العين» ، وهو الذي وضع أساس البحث في علم الأصوات ، وبحث الأصوات ومخارجها ، وابتكر علم العروض، ولم يكن معروفا بين علماء العربية ، فاكتشف خمسة عشرا بحرا أقام عليها الشعراء أوزانهم الشعرية ، وقد سئل عن مصدر علمه بكلام العرب ، فأخبر أنه تعلمها من ألسنة العرب الفصحاء ، وقد طلبها في بوادي العرب ، وتلقاها عن سابقيه ، ويعد الخليل أكثر علماء العربية أثرا في حقلها ، وأشهرهم على الإطلاق. وقد استودع علمه تلميذه الفذ سيبويه .

وأبو زيد الأنصاري الذي يعد أحفظ الناس للغة ، وأوسعهم رواية ، وأكثرهم أخذا عن البادية ، وقد أخذ عنه اللغة أحد نجباء النحو ، وإمامهم سيبويه الذي نقل عنه كثيرا في كتابه: «وحدثني من أثق بعربيته» يريد أبا زيد الأنصاري .

---

(1) الخصائص جـ1/ 3 .

وسعيد بن دُريد صاحب معجم «جمهرة اللغة» الذي قضى نحو عشر سنين في البادية وتعلم اللغة من أهلها وأملي كتابه الجمهرة من حفظه ، وكان أحفظ الناس وأوسعهم علما .

والفراء أحد علماء الكوفة وخلف الكسائي فيها ، وقد أخذ اللغة من بعض الأعراب الذين وثق بهم ممن كانوا ينزلون الكوفة ، مثل: أبي الجراح ، وأبي مروان وغيرهما .

وأبو عمرو الشيباني ، وهو من أعلم العلماء باللغة ، وأحفظهم وأكثرهم أخذا عن ثقات الأعراب ، وقد روي أنه كان يرتحل إلى البادية ويحمل معه صحفا ، ويعود وقد ملأ حمل حمير من الصحف التي دون فيها ما سمعه من فصحاء البادية شعرا ونثرا ، ولا يعود منها حتى ينفد مداده ويملأ جميع صحفه ، وغير هؤلاء كثيرون مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وابن قتيبة ، وابن الأعرابي ، وأبي عبيد القاسم بن سلام ، وابن السكيت ، وثعلب ، ومحمد بن حبيب ، وابن الأنباري ، وغيرهم من علماء العربية المشهورين الذين عرفوا بكثرة العلم ، والدقة والأمانة والورع .

ولقد كان للأعراب مكانة عظيمة عند اللغويين ، لأنهم مصدر لغتهم ، وحجتهم فيها ، وكان من لا يتلقى عنهم اللغة لا يؤخذ بقوله فيها ، ويضعف ، ويفاخر من نزل البادية أنه تلقى اللغة عن فصحاء البادية ، وقد اشتهر أهل البصرة بكثرة نقلهم عن أهل البادية ، ويضعفون لغة الكوفيين ؛ لأنها ليست من أهل البادية ، ويرون أنهم يأخذون عن أهل الحواضر . وقيل إن أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين ، وأهل البصرة يمتنعون عن الأخذ عنهم ، لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة ، ويضعفون روايتهم فيها ، وفي الشعر أيضا. قال أبو حاتم السجستاني البصري: «إذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها ، وحكيت عن العرب شيئا ، فإنما أحكيه عن الثقات منهم ، مثل أبي زيد ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم ، ولا ألتفت إلى رواية الكسائي، والأحمر ، والأموي، والفراء ونحوهم» ، فهو لا يأخذ عن الكسائي ولا عن أبي علي الأحمر ، ولا من عبد الله بن سعيد الأموي ، والفراء ، لأنهم كوفيون ، وأهل الكوفة في رأي البصريين ضعاف ومصدر علمهم لا يعتد به في الثقاة .

ولم يكن أخذ اللغة عن الأعراب عاما مطلقا ، بل كان علماء اللغة يأخذون عن جماعة

من ثقات الأعراب ، وعلمائهم ، مثل أبي مهدية، وأبي طفيلة ، وأبي البيداء ، وأبي حيوة بن لقيط ، وأبي مالك عمرو بن كركرة صاحب النوادر من بني نمير ، وأبي الدقيش الأعرابي وكان أفصح الناس ، وقد أخذ الخليل بن أحمد عن هؤلاء واختلف إليهم[1] ، ومنهم أبي الجراح ، وأبي مروان ، وقد أخذ عنهما الفراء ووثق بهما[2].وقد اشتهر غير هؤلاء في مجال الاحتجاج أو النقل ، وكان لهؤلاء الأعراب دور مهم في الفصل بين العلماء فيما اختلفوا فيه من اللغة ، فيحتكمون إلى الأعراب في مسائل الخلاف ، وأشهر القضايا التي احتكم فيها إلى الأعراب القضية التي وقعت بين سيبويه والكسائي في بغداد في مناظرة بينهما ، فقضوا بصواب رأي الكسائي ، وانصرف سيبويه منها مغموما ، وقيل إنه مات في أثرها ، وهو آيب إلى موطنه الأصلي .

وقد اعتمد العلماء كذلك على مصنفات الأئمة الأوائل ممن تربوا في بيئة عربية قحة لفصاحة لسانها ، وممن يحتج بكلامه من هؤلاء الإمام الشافعي: قال الإمام أحمد بن حنبل «كلام الشافعي في اللغة حجة»[3].

وقد كان بعض اللغويين والشعراء ينزل البادية ويقضي فيها زمنا يتعلم منهم اللغة ، ويكتب ما يسمعه عنهم ، حتى تقوي ملكته اللغوية ، وتزداد ثروته اللفظية ، وكان أبو عمرو بن العلاء والخليل والكسائي ممن قضوا زمنا في البادية ، وقد ذكر ابن دريد أنه عاش زمنا بين الأعراب ، ومن أشهر الشعراء الذين نزلوا البادية بقصد تلقي اللغة والفصاحة عن أهلها شاعر العربية المتنبي ، والسبب الرئيسي في قوة لغة البادية احتفاظها بالطابع العربي الجاهلي ، وعزلتها عن المجتمع الخارجي الذي تأثر بعوامل الحضارة ، بيد أن هذا الأمر لم يدم طويلا ، فقد شارك البدو في الحياة العامة وخالطوا غيرهم ، فأصابهم ما أصاب أهل الحضر ، وافتقدت العربية إلى عنصر مهم من العناصر الإنسانية التي كانت تحملها وتؤديها على وجها الصحيح ، ولكن الله تعالى سلم فقد اختارها لسان كتابه العظيم

---

(1) المزهر 2/ 410 .

(2) ارجع إلى المزهر 2/ 401 .

(3) الاقتراح للسيوطي ص124 .

وحفظها بحفظه ، وكفاها به حافظا أمينا .

ويعد الشعر مصدرا أساسا من مصادر اللغة كما يعد نصا أساسًا في الاستشهاد ، فهو ديوان العرب الذي سجلوا فيه تاريخهم ، ووصفوا به أحوالهم ، وأعربوا به عما في نفوسهم في زمن لم يعرفوا فيه الكتابة ، وهم في طبيعتهم أمة تفيض بالمشاعر الجياشة ، فكان الشعر سبيلهم في البوح بها والتعبير عنها ، وقد ساعدتهم بيئتهم القاسية الصافية الفسيحة بمزيد من الإلهام ، وفجرت فيهم طاقات إبداعية هائلة ، ولها الفضل في صفاء نفوسهم ورهافة إحساسهم وسمو روحهم ، ووهبتهم القدرة على الحفظ والكلام ، فلم يكن لديهم شغل شاغل يتلهون به غير صناعة الكلام ومباريات الشعر التي حقق الشاعر في ميادينها شهرة بلغت الآفاق ، فنال منزلة تطاولت لها الأعناق .

وقد كان للشعر انتشار واسع ، وصوت مدوي في حياتهم لسهولة حفظه ، وسرعة دورانه بين العرب وقوة تأثيره لما فيه جزالة اللفظ وإيجازه ، وحلاوة موسيقاه وأثرها في النفس ، والعربي مفطور على سرعة التأثير والاستجابة والانفعال ، وهذا من دواعي تفوقه في مجال الإبداع الشعري .

وقد ظهرت أهمية الشعر في صدر الإسلام ، فقد أدرك النبي ﷺ بالإلهام الإلهي وبوعيه العربي أن للشعر أثرًا كبيرا في حياة العرب ، وأنه سلاح ينافح به عن الإسلام ، فجند حسان ابن ثابت –رضي الله عنه– وغيره من المسلمين الذين يقدرون على قول الشعر في الدفاع عن الإسلام والمسلمين والرد على شعراء المشركين ، كما كان يحث حسان على الشعر ، وأن روح القدس يؤيده ، وكان يستحسن بعض شعر العرب ، ويعلن إعجابه ببعض المعاني التي تتضمن حكما ، وكان لحسان دور في المناظرات أو المنافرات التي كانت تقوم بين شعراء الوفود التي قدمت المدينة ، وكانت عبارة عن مباريات كلامية في الخطابة والشعر ، ويذكر كل فريق ماله وما لقومه من عز وجاه ومكانة وبلاء في الحروب ، ويعدد مناقب قومه[1] .

وحسان بن ثابت –رضي الله عنه– هو أحد الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية

---

(1) ارجع إلى: الشعر في عصر النبوة، الدكتور محمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي .

والإسلام ، واشتهر في الجاهلية بمدح ملوك غسان والحيرة ، واختص في الإسلام بمدح النبي ﷺ والدفاع عنه ، ولم يكن حسان رضي الله عنه رجل حرب ، فكان يناصر رسول الله ﷺ بلسانه بتوجيه منه ﷺ إذ قال: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم» ، فقال حسان: أنا لها . ثم أخذ يعرض بأعداء الرسول ﷺ بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، فكان شعره يقع على نفوس أعداء الإسلام كوقع النبل جملة واحدة. حتى قال أحدهم لو مزج شعر حسان بماء البحر لمزجه[1].

وقد لحق بحسان في الإسلام من شعراء الجاهلية لبيد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، وزيد الخيل (أو الخير) ، والنابغة الجعدي ، والخنساء بنت عمرو ، وغيرهم .

وقد استن الصحابة رضوان الله عليهم سنة للشعر الجاهلية لبيد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، وزيد الخيل (أو الخير) ، والنابغة الجعدي ، والخنساء بنت عمرو ، وغيرهم .

لقد استعان الصحابة رضوان الله عليهم بالشعر وكلام العرب في تفسير القرآن الكريم بعد انقطاع الوحي بوفاة رسول الله ﷺ فقد كان الشعر هو معجمهم الأثير في فهم معاني القرآن الكريم ، وقد صح أن أصحاب رسول الله ﷺ ، والتابعين ، تعرفوا على بعض معاني غريب القرآن وعلموا مُشْكِلَهُ باللغة المسموعة من فصحاء العرب والشعر .

وقف عمر رضي الله عنه يخطب ، فقرأ على المنبر ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: 31] . فقال هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب . ثم رجع إلى نفسه ، فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر . ووقف يوما على المنبر: ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: 47] . ثم سأل عن معنى التخوف ، فذكر له رجل من هذيل قول الشاعر[2]:

تخــوف الرجــل منهــا تامكًــا قــردًا كــما تخــوف عــود النبعــة الــسفن

فقال عمر: «أيها الناس ، تمسكوا بديوان سفركم في جاهليتكم ، فإن فيه تفسير

---

(1) ارجع إلى: الشعر في عصر النبوة، الدكتور محمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي .

(2) تاريخ آداب اللغة العربية 1/ 151 وتاريخ الأدب العربي ص16 وتفسير القرطبي جـ1/ 26 .

كتابكم»[1].

ويعد عبد الله بن عباس رضي الله ترجمان القرآن أول من توسع في الاحتجاج بالشعر في فهم معاني القرآن روى عنه عكرمة أنه قال: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب» وقال سعيد بن جبير ويوسف بن مهران: سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء بالقرآن ، فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا[2].

وقد روي عنه كثير من التابعين بعض المعاني التي فسرها وتمثل فيها بالشعر ، روى عكرمة ابن عباس – أن رجلاً سأله عن قول الله عز وجل: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: 4] . قال: «لا تلبس ثيابك على غدر» ، وتمثل بقول غيلان الثقفي:

فأني بحمد الله لا ثوب غادر ليست ولا من سوءة أتقنع

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم، قال: هو ولد الزنى وتمثل بقول الشاعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ، ذو حسب لئيم

ومسائل نافع ابن الأزرق وأجوبتها حافلة بأبيات استشهد به ابن عباس على المعنى الذي فسر به اللفظ[3].

وكانت العربية في أزهى عصورها عند ظهور الإسلام ، ولم تكن هناك أمة تملك القدرة على الكلام والإبداع الأدبي من أمة العرب ، وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين غير ذي عوج ، فعلموا أنه ما هو بقول شاعر ، وما هو بقول بشر ، فأفحمهم بيانه ،

---

(1) الموافقات للشاطبي 2/ 52 ، والدلالة اللفظية للدكتور محمود عكاشة ص46 . والتخوف: التنقص . القاموس المحيط . والتامك: السنام . والقرد: الذي تجعد شعره ، والنبع: شجر يصنع منه السهام . والسفن كل ما ينحت منها .

(2) تفسير القرطبي ، طبعة دار الحديث جـ1/ 39 ، 40 .

(3) مسائل نافع بن الأزرق ، جمع وتحقيق أحمد الدالي ، الجفان الجابي ، دمشق 1413 هـ 1993م وارجع إلى كتابنا الدلالة اللفظية ص45 .

وأعجزتهم فصاحته ، فأخمل القرآن الشعر وأهله ، ورفع ذكره ، وكفى لفظ القرآن النبي ﷺ الإتيان بالحجة المادية برهانًا على صدقه ، فمن سمعه علم أنه يعلوا ولا يعلى عليه ، وأنه يتمتع بغزارة المعنى ، وقوة الاحتجاج .

وقد كان العرب يبحثون في كلامهم عن معنى الشعر ، فلما نزل القرآن الكريم بحثوا في الشعر عن معاني القرآن ، وأصبح الشعر الذي كان يعد فنهم الأول سبيلا لفهم كتاب الله تعالى لقوة لفظه ورصانة تركيبه عما في أيديهم من الشعر ، وقد جعل النص القرآني للشعر أهمية لغوية فلا غناء عنه في معرفة لفظه ومتشابه ، فاستشهدوا بالشعر في بحث معنى القرآن ؛ لأنه النص الوحيد المحفوظ الذي سجل فيه لغات العرب في حقبة زمنية سبقت الإسلام ، ولهذا اهتم علماء العربية به وجعلوه أساسا في توثيق مادة اللغة ، ووقفوا بالشعر عند فترة العصر الجاهلي دون ما بعدها على اعتبار أن هذه الفترة تمثل العربية الفصحى في أزهى عصورها ونضجها ، ففترة العصر الجاهلي هي الفترة النقية في حياة اللغة العربية التي عاشت في بيئة عربية خالصة قبل الإسلام .

وقد تعصب كثير من علماء العربية لإنتاج العصر الجاهلي ، ورأوا أن ما عداه من الشعر الإسلامي لا يبلغ منزلته في قوة لفظه ومعناه . ويعد أبو عمرو بن العلاء (70-150) وهو المقدم في العربية – أكثر علماء العربية رفضا للأخذ عن شعراء الإسلام ، وحكي عنه تلميذه الأصمعي أنه جالسه عشر سنين ، فلم يسمعه يحتج ببيت إسلامي قط ، وقسموا الشعراء إلى طبقات ، أطلقوا على الإسلاميين اسم المحدثين ، وقد كان يعجب أبا عمرو بن العلاء أحيانا بعض شعر المولدين أو المحدثين ، وقال عندما استحسن بعضه: «لقد حسن هذا المولد ، حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته» ، وبعضهم هم بتدوين ما سمعه من شعرهم فعرف أنه لمولد فتركه. ولم يكن هذا موقف جميع علماء العربية ، فالخليل كان من المتعصبين للشعر الجاهلي ، ولكن تلميذه سيبوبه خالفه واستشهد بشعر بعض الإسلاميين ، بل استشهد بشعر بشار بن برد وهو معاصر له ، فزعم بعض من أنكر عليه ذلك أنه استشهد به تخوفا من هجائه ، وهذا ليس بمعقول عن سيبويه! .

وقد اعتمد علماء العربية على الشعر مصدرا يأخذون منه اللغة ويحتجون به ، وذلك

لأنه أسهل حفظا وأرقى لغة ، وكان له منزلة شريفة في نفوس العرب فرعوه حق رعايته ، وحسنوه وهذبوه . وقد اعتمد العلماء على ما رواه الثقات عن العرب بالأسانيد المعتبرة من نثرهم ونظمهم ، وقد دونت دواوين عن العرب كثيرة مشهورة ، كديوان «امرئ القيس ، والنابغة الذبياني والأعشى» والمخضرمين مثل« حسان ، ولبيد ، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك، والنابغة الجعدي ، والخنساء». وبعض الإسلاميين مثل: «الطرماح ، وجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والنميري ، والعجاج ورؤبة ابنه ، وذي الرمة» .

وقد حقق بعض شعراء الموالي في العصر الإسلامي شأوا عظيما في العربية ، فصارت أشعارهم حجة ، ولكن موقف اللغويين من المولدين حال دون أن توضع هذه الأشعار في موضعها من الاحتجاج ، فقد كان كبار اللغويين يعجبون بشعر يسمعونه ، ويهمون بتدوينه ، فإذا علموا أنه لمولد تركوه ، ونفروا منه لا لعيب فيه غير أن قائله ممن ولد في ربي الإسلام وحضارته ، ولم يرب في جلافة البداوة وظلفها ، ومن شعراء المولدين من الموالي: بشاربن برد وأبو نواس ، وكان شعرهما مما يرضي اللغويين والبلاغيين ، وآخر شعراء العرب الذين أثاروا إعجاب الجميع قديما وحديثا ، أبو الطيب المتنبي أشهر شعراء العرب ، وأقدرهم على الشعر ، وقد كان ابن جني أحد معاصريه وأصدقائه يعجبه شعره واحتج به ويقول: «قال شاعرنا» ويذكر شعره . وشرح ديوانه . وابن جني هو من هو في اللغة [1] .

وقد قسم العلماء شعراء الاحتجاج إلى طبقات ، على النحو الآتي:

الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون كامرئ القيس ، والأعشي ، والنابغة ، وطرفة وعمرو بن كلثوم وغيرهم ، وهؤلاء يحتج بشعرهم إجماعا ، بيد أن الأصمعي أخرج منهم عدي بن زيد ، لأنه كان يخالط الفرس ونشأ فيهم ، وأبا دؤواد الإيادي كذلك وهما شاعران جاهليان ، ولا يؤخذ بشعرهما في الاحتجاج ، لأن ألفاظهما ليست نجدية وبها كثير من الدخيل .

الطبقة الثانية: المخضرمون ، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، ومنهم:

---

(1) شرح ابن جني ديوان المتنبي، وسمّاه الفسْر.

حسان بن ثابت الأنصاري ، ولبيد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، وزيد الخيل ، والخنساء وغيرهم . وهذا الطبقة يحتج بشعرها جميعا إجماعا مثل سابقتها .

الطبقة الثالثة: الإسلاميون أو المتقدمون ، وهم شعراء صدر الإسلام كجرير والفرزدق والراعي والنميري والأخطل وقيس الرقيات ، وكثير ، وجميل ، والكميت وذي الرمة ، وغيرهم ممن قالوا الشعر في الإسلام (أو في صدر الإسلام) ، ولم يقولوه في الجاهلية . وهؤلاء يحتج بشعرهم ويؤخذ عنهم ، ولكن بعض علماء العربية مثل: أبي عمرو بن العلاء ، وعبد الله ابن إسحاق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمة لحنوا: الفرزدق والكميت وذي الرمة وغيرهم وضعفوا بعض شعرهم ، وهؤلاء لا يبلغون درجة من سبقهم في الاحتجاج .

الطبقة الرابعة: وهم المحدثون أو المولدون ، وهي من بعد طبقة صدر الإسلام حتى زمن بشار وأبي نواس ، وهم من شعراء القرن الثاني والثالث الهجريين ، وهم كثير منهم أبو العتاهية ، وبشار ، وأبو نواس ، والبحتري ، وأبو تمام ، وغيرهم ، وهؤلاء لا تؤخذ عنهم اللغة ولا يحتج بشعرهم ، لأنهم تربوا في الحاضرة وتعلموا الشعر ، وخالطوا الأعاجم .

ولنا رأي في التراث الأدبي الذي أنتجه أبناء العربية في ظل الحضارة الإسلامية في عصور الازدهار الأوائل حتي القرن الخامس الذي تسلط فيه الأعاجم على السلطة والحياة الأدبية ، ورأينا هذا نوافق فيه رأي أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين ، وهو أن تراث هذه الفترة الزمنية عربي في مفرداته ، ولا يقل في سلامته عن تراث عصور الاستشهاد الأولى ، فقد صدر هذا الإنتاج الأدبي عمن يملكون قدرة لغوية وإبداعية ، وتربوا في كنف تراثنا الديني والأدبي ، ونهلوا منه ونمت ملكتهم الإبداعية بفضل روافد هذا التراث الذي استقوا منه مادتهم ، واقتاتوا من موائده .

وقد حرص هؤلاء المبدعون على تعلم العربية من روافدها الأولى من العرب الفصحاء في البادية أو من مصادر اللغة المدونة ، كما حفظوا ما أتيح لهم من تراثها الشعري ، وحذقوا نثرها ، وهم قبل ذلك حفظوا القرآن الكريم منذ نعومة أظافرهم ، وحذقوا قراءته ، وعلموا معانيه فصقل لسانهم في العربية ، وأصبح دربا على التخاطب بها .

وقد تربى هؤلاء الأدباء في مدارس العربية الأولى ، فحذقوا علوم العربية ، وتعلموا النحو ، والصرف ، واللغة وأصبح لهم وعي لغوي مكنهم من إتقان ما يبدعونه ، واختيار الأقوى والأفصح من اللغة ، وصارت لديهم خلفية واعية باللغة يبارون بها غيرهم ممن تخصص في حذقها .

وقد احتفظ لنا تراثنا الأدبي بنماذج رائعة من أعمالهم التي تشهد بعمق وعيهم اللغوي وحذقهم فنون اللغة والأدب ، فتجدهم في كل فن يخوضون ، وقد اتهم بعضهم بأنهم من المتكلفين أو أنهم صناع في فنهم الأدبي ، وهذا يدل أنهم وصلوا إلى منزلة عالية في الإلمام بعلوم التراث وحذقه ، ولم يقفوا عند تراث العربية فقط ، بل تجاوزوه إلى تراث الأمم الأخرى فاستفادوا منه ووظفوه في صناعتهم الأدبية ، وأضافوا إلى فنون العربية فنونا جديدة لم تعرفها من قبل ، وطرقوا أساليب جديدة أفادت الإبداع الأدبي عامة ، فلقد استفاد أبناء العربية من الثقافات التي اطلعوا عليها في شتى علوم المعرفة ، وبلغت قدرتهم أن عربوها ، فشرت فيها الروح العربية ، ومن عظيم فضل الله على العربية أنها ليست حكرا على العرب وحدهم أو أبناء العرب وحدهم ، بل هي لغة كل مسلم يحب دينه ، ويحرص على تعلمه ، فقد نهض المسلمون على اختلاف أجناسهم إلى المساهمة في تراث العربية ، فأسهموا فيه إسهامات عظيمة بلغت عنان كل فن فيها وكأنها لغتهم الأولى ، فلم يألوا جهدا في رفعتها والمساهمة فيها حتى صاروا أعلاما فيها وحملوا لواءها حتى العصر الحديث ، ولهم فيها باع كبير ، وهؤلاء في تمكنهم لا يقلون درجة عن أبنائها الأقحاح ، بل ألف بعضهم كتبه بالعربية ، وهو ماهر فيها ، كما ألف بلغة أخرى كالفارسية ، وهو ماهر فيها أيضا ، وخاض بعضهم في دراسة اللغات الأخرى ، وقارنوا بينها وبين العربية [1] .

إننا لا نستطيع أن نهمل إنتاج هؤلاء العظماء المتمكنين ، ولا أن ننكر قوته وسلامته وموافقته عرف العربية ، ولا نستطيع أن نخرجه من فصيحها ، فهو لا ينزل عنه درجة ولا يقل قيمة ، ونستطيع أن نعتد به في لغة الاستشهاد ، ونحن – شئنا أو أبينا- نعده من مصادرنا الأساسية ، ونأخذ عنه ونستشهد به غير مبالين بآراء الرواد من أهل اللغة الذين

---

(1) ارجع إلى كتاب: دراسات لغوية ص102 وما بعدها .

كانوا لا يعتدون بقيمة أعمال معاصريهم من حذاق فنون العربية والمتمكنين منها لا لشيء إلا أنها لا تدخل في تراث الحقبتين الأوليين من تاريخ العربية (العصر الجاهلي وصدر الإسلام) ، وهم يعترفون بفصاحة هذه الأعمال وقوتها وتمكنها مثل ما سبقها ، ولكن سوءتها الوحيدة أن مبدعها من المولدين الذين خلفوا جيل صدر الإسلام في ميدان الأدب .

ولا شك أن تراث العربية الأدبي في جميع عصوره هو مصدرنا في اللغة وفي ميدان الإبداع الأدبي ، وهؤلاء الذين استبعدهم رواد العربية من الاحتجاج هم روافدنا في ميداني اللغة والأدب.

ولا ريب أن أعمال شعراء الإسلام تحمل في جوهرها روح البيان العربي القديم ، وروح التطور اللغوي الذي طرأ على اللغة في مراحلها المختلفة ، وقد حملت لنا هذه الأعمال المستوى الذي وصلت إليه العربية في ظل الإسلام والحضارة التي بعثها المسلمون في الأرض ، ولا شك أن الأجيال المتعاقبة ساهمت في إثراء العربية وتجديدها ، وأنهم جددوا في أساليبها وطوروا في فنونها ، ولم يقفوا بها عند مرحلة معينة تفقدها معاصرتها ومواكبتها للحياة ، فقد سارت العربية في موكب واحد مع تطور الحياة والحضارة ، ولم تعجز عن التعبير عن مراحل النمو الحضاري للمسلمين ، وهذا ما يعطيها قيمة عظيمة بين اللغات ، وما زالت العربية قادرة على النمو والتطور بفضل ما لها من قدرة بالغة على التعبير عن معطيات الحضارة ، والفضل الأول والأخير لله رب العالمين الذي أعطاها مكانها في قلوبنا وأفرد لها مكانا عظيما دون اللغات عامة ، وهو القرآن الكريم الذي تكفل بحفظه إلى قيام الساعة ، فالعربية حية باقية ما بقي كتاب الله تعالى ولله الحمد والمنة .